آراء عن الغرب

العالم بعد خمسة وثلاثين عاما

بقلم الأستاذ فرحان سعيد

أصدر الكاتب الانجليزي جورج أورويل منذ أشهر قليلة كتابا قيما بعنوان « عالم ١٩٨٤ » يصف فيه الحياة العالمية اليومية التي يتخيلها سائدة آنئذ . وقد أثار هذا الكتاب عاصفة من الاهتمام والدهشة في الأوساط الأنجليزية والأمريكية على السواء، وتناوله عدد كبير من الصحف بالعرض والنقد والتحليل. وقد تعرضت له مجلة (ريدرز دايجست) في أحد أعدادها الأخيرة فلخصت القسم الأول من أقسامه الثلاثة .

والقسم الأول من الكتاب وصف للحياة اليومية في أوسيانيا كما يتخيلها المؤلف في عام ١٩٨٤ . وأوسيانيا هذه تؤلف أجزاء العالم الغربي الذي نعرفه اليوم ، شاملا على الأخص الجزر البريطانية وجزر الاطلنطيق والأمريكتين وافريقيا الجنوبية وقسما كبيرا من استراليا .

ونظراً لما له من الأهمية وما فيه من الطرافة والفائدة ، فقد رأيت أن أقدم إلى القراء الكرام بمراجعة عجلى له :

وتستون سميث رجل ضعيف البنية ، يناهز التاسعة والثلاثين من العمر ، يلتجيء في يوم عاصف من ايام نيسان الباردة عام ١٩٨٤ الى المنازل المعروفة (بمنازل النصر) . وعندما دخل القاعة استرعى نظره صورة كبيرة ملونة معلقة على الحائط ، تمثل وجها كبيرا جدا ، وجه رجل يقارب الخامسة والاربعين من العمر ، له شاربان اسودان كبيران وملامح جذابة ، وقد كتب تحتها ، الأخ الكبير يراقبك ! ، فهي اذن صورة الزعيم الذي يدير دفة الحكم في اوسيانيا .

وفي أحد الطوابق كان ينبعث صوت عذب يقرأ لائحة هامة حول انتاج الحديد الخام لقد كان الصوت ينبعث من قطعة معدنية مستطيلة ، تعرف بالتلسكرين . وأدار وتستون مفتاحها ، فخفت صوتها ، ولشد ما كان يتوق الى إسكاتها تماما لو كان ذلك في استطاعته ، ولكن الحكومة اعدتها بحيث تظل دائما مسموعة مفهومة واضحة وقد كانت هذه الآلة الغريبة تلتقط كل مايخرج حولها من الأصوات وما يجرى من الحركات . فكان في استطاعة « شرطة الفكر » ان يراقبوا جميع الناس من ورائها . وعلى الانسان أن يعيش وهو موقن أن أي صوت يخرجه أو حركة يأتيها ستكشفها الشرطة ما في ذلك ريب .

ويذكر المؤلف ان العالم قد انقسم بعد الحروب والانقلابات الخطيرة التي حدثت في اربع الثالث من القرن العشرين الى ثلاث قارات كبيرة وهي : — أوربة الاسيوية ، وآسية الشرقية ، وأوسيانيا . وقد كانت الحرب بينها سجالا ، فما كانت تنتهي يوما الا اتندلع نارها من جديد .

وعلى بعد كيلو مترات تبين أمام سميث العمارة الشاهقة التي تشغلها وزارة الصدق حيث مكان عمله . وتشغل هذه الوزارة عمارة ضخمة على شكل الأهرام ، وقد كتبت على جوانبها المبادىء الثلاثة لحزب الأخ الكبير ، وهي تنص على مايلي : — الحرب سلم ، والحرية عبودية ، والجهل قوة . وفي هذه المبادىء تتلخص فلسفة الأخ الكبير ونظرته السقيمة الى الحياة . فلقد كان يعتقد ، ويعتقد معه حزبه ، أن الحرب إحدى السبل الطبيعية للحياة ، ولذا كانت أحسن حالا من السلم . ويرى الحرية عبودية لان حرية الانسان تضطره الى الاهتمام بشؤونه الخاصة وهذه هي العبودية عينها؛ ويرى في الجهل قوة ، لأن الانسان إذا تعلم كثيرا ضعفت قواه الجسمية والعقلية . وتضم وزارة الصدق ثلاثة آلاف غرفة علوية ، ومثلها سفلية ، وليس في لندن كلها سوى ثلاث عمارات تضاهيها شكلا ومنظرا . وفي هذه البنايات الأربع تتركز جميع أجهزة الحكومة وهي: — وزارة الصدق التي تهتم بالاخبار والعلوم والفنون واذاعة البرامج على التلسكرين ؛ ووزارة السلم وهي التي تعنى بالشئون الحربية ؛ ووزارة الحب وهي التي تسن الأنظمة والقوانين ، وتبث التلسكرينات في كل بيت ، وتحرم على الناس الحب وتحتم عليهم أن يستغلوا جميع عواطفهم لمصالح الدولة ؛ ثم وزارة الكثرة وهي التي تعنى بالشؤون الاقتصادية .

وتوجه وتستون الى بيته ، وانتحى ناحية منه ، ثم تناول دفترا

ذا غلاف احمر وعزم على تدوين مذكراته . واما الدفتر المذكور فيدل منظره على ان له من العمر اربعين عاما ، ولقد وقع عليه بصره فى احد الحوانيت فى بلدة تسكنها « الطبقة الكادحة » التى كان محظورا على المنتمين لحزب الاخ الكبير ان يختلطوا بها أو يدخلوا حوانيتها . وقد استولت على بونستون رغبة عنيفة جارفة لشراء الدفتر ، ففعل ولكن بعد ان اخذ الحيطة اللازمة لئلا يكشف امره والا كان عقابه الموت او السجن فى معتقلات الأعمال الشاقة ٢٥ عاما على الاقل .

وشرع ونستون يدون مذكراته بحروف غامضة ، ولكنه سرعان ماانقطع عن ذلك عندما راوده الفكر أن شيئا أهم من كل مادونه قد حدث فى الوزارة صباح ذلك اليوم . فقد انبعث من التلسكرين الجاثم فى احدى الزوايا بقاعة الوزارة ضجة صاخبة تعلن ابتداء برنامج البغض ومدته دقيقتان . فظهرت على شاشة التلسكرين صورة وجه عمانوئيل جولد شتاين ، عدو الشعب الماروق الذى كان فيما مضى أحد زعماء الحكومة البارزين ولكنه انغمس فى اعمال عدوانية ضد الدولة فحكم عليه من جرائها بالاعدام . ولقد كان هذا البرنامج يتنوع يوما بعد يوم ، ولكن جولد شتاين هو هو بطله فى كل الأوقات ، فاليه تنسب جميع الخيانات والمؤامرات . فيشاهد على الشاشة وهو مندفع فى الفضاء خطاب عنيف موجه للأخ الكبير منددا بدكتاتوريته ومحقرا شخصيته . وما إن توشك الدقيقتان على الانتهاء حتى تثور ثائرة الجمهور الذى يحاول إسكات ذلك الهذر الجنونى الصادر عن التلسكرين ، وتخالط نفسيته موجة من الذعر والانتقام والتعطش الى القتل والتعذيب ، ويتحول كل شخص مجنونا ثائرا يملأ المكان عويلا وصراخا . ولكن الأخ الكبير لاتطول عليهم غيبته ، فاذا به يظهر على الشاشة وينظر اليهم نظرات يهدىء بها ثائرتهم ويعيد الثقة والطمأنينة الى نفوسهم .

تذكر ونستون كل هذا ثم عاد الى مذكراته يراجعها ، فألفى نفسه قد كتب وسط ذلك البحران والتفكير الشارد جملة واحدة بخط كبير مرات مرات « ليسقط الاخ الكبير ! »

وتستبد به رعدة من الذعر لأن كتابة هذه الكلمات أو مجرد التفكير بها لهو إجرام ، وجريمة الفكر ليست من الامور التى يطول كتمانها اذ لا تلبث ان تكشف يوما ما ، فما يشعر مقترفها الا وقد امتدت اليه فى ساعة من ساعات الظلمة الحالكة يد قاسية عاتية تهز كتفيه بعنف وشدة ، وتسومه من العذاب ألوانا ثم تسوقه الى الاعدام . ولقد كان التجسس أمرا شائعا ؛ فالأولاد الصغار يتجسسون على آبائهم وأمهاتهم ويراقبونهم مراقبة شديدة ؛ وكثيرا ما يشكونهم لشرطة الافكار ، وكانت الجرائد تروى الكثير من نوادرهم بعد أن تشيد ببطولتهم واخلاصهم ، وتلقبهم حين تتحدث عنهم « بالصبية الأبطال » وانبعث من التلسكرين صوت صفارة يصم الآذان ، يعلن وقت النهوض لوظائف المكاتب . وينهض ونستون ويقف أمام التلسكرين ليقوم بالتمرينات الرياضية الاجبارية التى تذيعها الوزارة ولا مفر من القيام بها على أحسن وجه .

اما مكتب عمله فقد كان كغيره من المكاتب مجهزا بجميع ما يحتاج اليه . فأمامه الآلة المسجلة للكلام وبجانبه شقوق فى الحائط ترمى فيها الأوراق المعدة للاتلاف فتحمل آليا إلى مواقد كبيرة تلتهمها فيها ألسنة النيران وتأتى عليها . واذا ما احتاج الى بعض السجلات الرسمية فما عليه إلا أن يدير أرقاما فى قرص أمامه ، فيأتيه طلبه فى أسرع من طرفة عين . وقد كان العمل الأساسى لدائرته أن تنقح جميع الجرائد والكتب والنشرات والإعلانات والافلام والصور وما اليها من السجلات بحيث تظل دائما ملائمة لمقاصد الحكومة ودعايتها ، فتحفظ فى الملفات . واما النسخ الأصلية القديمة فيحكم عليها بالإتلاف . ودائرة السجلات هذه أحد فروع وزارة الصدق التى من شأنها أن تعيد بناء الماضى وتزود سكان أوسيانيا بالمجلات والكتب والأفلام والبرامج وما اليها ، وتقدم لأعضاء الحزب جميع حاجاتهم على اختلاف أنواعها .

واما الجماهير المؤلفة من الطبقة الكادحة التى تكون ٨٥ فى المئة من مجموع سكان اوسيانيا ، فلم تكن خاضعة فى الكثير من

مظاهر حياتها لدعاية الحزب ، لان الحزب لم ير ضرورة لذلك بعد ان كان يجعلهم يزجون أكثر أوقاتهم في الأشغال التي لا تبقى لديهم من الوقت ما يسمح لهم بالتحفز ضد الحكومة . كما ان الدوائر المختصة بها كانت تكيف عقليتها على النحو الذي تشاؤه فلا تقدم لها من الأدب والموسيقي واللهو والتمثيل الا بضاعة رخيصة عتة لا تتعدى إثارة العواطف الجنسية والأفكار المحطة، حيث لا تفسح لها المجال في التفكير الراقي في [illegible] الحياة وطرق العيش .

ويلتقي ونستون بصديقه سايم في أحد الحوانيت النموذجية التي يتناول فيها أفراد الحزب وجبات طعامهم ، وهنا يستفيض الحديث فيتطرق سايم إلى الكلام على المعجم الذي يؤلفه في اللسان الحديث — وهو اللغة المنتشرة في أوسيانيا — ، فيقول : — لقد شرعنا نلغي مئات الكلمات القديمة كل يوم لأن الغاية من اللسان الحديث تضييق آفاق الفكر بحيث تجعل جريمة الفكر أمرا مستحيلا ، وذلك بإعدام ما يعبر عنها من المفردات ... وينصت ونستون إلى التلسكرين وهو يتلو رسالة من وزارة الكثرة تتحدث عن ازدياد الانتاج في هذا العام عن العام السابق زيادة في الطعام واللابس والمنازل والأثاث وغيرها . ولكنه يستغرب كل هذا ويستهجنه ، إذ لا يذكر أنه حصل طوال حياته على ما يكفيه من مأكل وملبس ، ولا يذكر كذلك أن أثاثه كان متهافتا وبيته كان متداعيا . ولكن أنى للانسان أن يظهر أمارات السخط أو الشك لأن ذلك هو الجريمة بعينها . وراح ونستون يتجول في أحياء الطبقة الكادحة حتى وصل أخيرا إلى الحانوت الذي اشترى منه فيما مضى الدفتر ذا الغلاف الأحمر . رأراه هنا صاحب الحانوت قطعة من الزجاج ركب في جوفها قص من المرجان ، ويرجع تاريخها إلى مائة سنة خلت . وعلل يونستون إعجابه بها، لا لأنها جميلة فحسب ، بل لأنها تنتمي إلى عصر غير العصر البغيض الذي يعيش فيه . ثم قاده صاحب الحانوت إلى غرفة مريحة في طابق علوي فتمنى ونستون لو كان يستطيع أن يستأجرها منه ، ويعيش فيها هادئا مستريحا بعيداً عن صوت التلسكرين المقيت ، ولكن أين منه ذلك والرقابة منتشرة في البلاد طولا وعرضا !

هذا وصف موجز للحياة اليومية كما يتخيلها المؤلف سائدة عام ١٩٨٤ . وأما أفكاره هذه فيختلف وقعها على القراء بحسب بيئاتهم . فقد تبدو للأميركيين مجرد وهم وخيال لأنه يشق عليهم أن يؤمنوا بدكتاتور كالأخ الكبير يتمطش للسلطة ، وبحكومة بسارية فظيعة ما داموا قد تعودوا استطابة العيش في ظلال الحرية . اما خارج اميركا فقد تكون رسالة المؤلف أعمق أثرا [illegible] ، فالايديالية الذين عاصروا موسوليني وهتلر يلقون الأولاد الصغار دروسا في القسوة الوحشية لن يدهشهم أن يروا الصبية الذين لا تتجاوز اعمارهم السابعة يمارسون التجسس على بد الاخ الكبير . واذا تسنى لهذا الكتاب أن يتجاوز الحدود إلى ماوراء الستار الحديدي فلن يبعد و فيه هذا العالم الرهيب غريبا وخياليا ، لان الصورة التي رسمها المؤلف له مبنية على الدرس الدقيق لمستقبل الاشتراكية اذا اطرد سيرها على منواله الحالي .

أما أهمية الكتاب فليست في تخيلاته وطرافته ، وإنما هي في منطقة المر القاسي، لأن المؤلف يحذر فيه الناس من القوى المهددة لعالمنا اذا نشطت هذه القوى حتى تبلغ بنا الى النهاية المحتومة . ولربما تحمل هذه الأفكار بعض الناس على الظن أن المؤلف قصد أن يقول : — « إن الناس أشرار بطبعهم » وليس هناك من أمل يرجى في صلاح البشرية مادامت على هذه الحال » وما هذا بصحيح لأن الناس اذا ما واصلوا سعيهم لإسعاف البشرية ، واحترام روح الحق ، واعتناق الصدق في السعي وراء المعرفة الكبرى ، فلن يقودهم سعيهم هذا الى الاستعباد الرهيب . واذا تآزروا جميعا على محاربة روح التفرقة ؛ ودعوا الى الحرية في عبادة الله ، والحض على حب النساء وتقديرهن ، والعناية بالأطفال ومساعدة المرضى، والجهاد من أجل الإبقاء على قيمة الإنسان وإنماء الروح الإنسانية فيه ، والحرص على حريته ، فإن هذا العالم الرهيب الشرير ، عالم ١٩٨٤ ، المفعم رعباً وهولا لن يقدر له في يوم من الأيام أن يصبح حقيقة ماثلة للعيان .

صابر فرحات سعيد
مدرسه الفرندز للبنين
رام الله